

التعليق على رسالة

(ذم قسوة القلب)

لابن رجب

لفضيلة الشيخ الدكتور:

عبد الله بن حمود الفريح

التعليق على رسالة

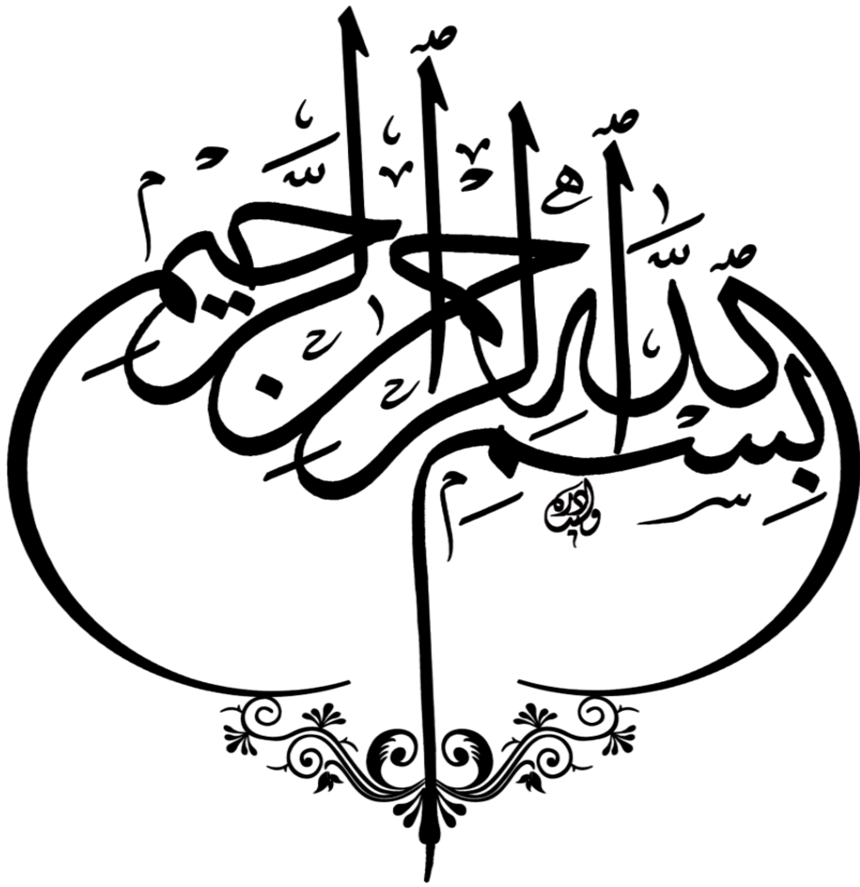
(ذم قسوة القلب)

لابن رجب

لفضيلة الشيخ الدكتور:

عبد الله بن حمود الفريح




بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

هذه رسالة ابن رجب -رحمة الله تعالى عليه- "رسالة في ذم قسوة القلب، وذكر أسبابها وما تزول به"، وهي رسالة مهمة للغاية، كتبها -رحمه الله- من ضمن مجموعة رسائل خرجت في أربع مجلدات، وفي طبعة أخرى في خمس مجلدات.

وهذا المجموع حري بطالب العلم أن يشتريه، فيه عدة رسائل قصيرة ومتنوعة، وكثير منها في رقائق القلوب، ومنها هذه الرسالة.

شُرِحَت هذه الرسالة (رسالة في ذم قسوة القلب وذكر أسبابها وما تزول به) في سلسلة دروس لدورة علمية قصيرة. قام بتفريغ هذه الدُّرُوس ومراجعتها من المادة الصوتية فريق علمي، ولم تُراجع من قبل الشيخ.

روابط الدروس:

رابط الدرس الأول:

https://m.youtube.com/watch?v=MNWpvYp٠IjU&list=PLGZRfgcziUDpm٦٥iDiF٤JwFSFXOMdb٣ee&index=١&pp=iAQB

رابط الدرس الثاني:

https://m.youtube.com/watch?v=wrjQVXkHy١M&list=PLGZRfgcziUDpm٦٥iDiF٤JwFSFXOMdb٣ee&index=٢&pp=iAQB

رابط الدرس الثالث:

https://m.youtube.com/watch?v=Mqb٣pbMayIY&list=PLGZRfgcziUDpm٦٥iDiF٤JwFSFXOMdb٣ee&index=٣&pp=iAQB

رابط الدرس الرابع:

https://m.youtube.com/watch?v=nUYJEvl٦hA٨&list=PLGZRfgcziUDpm٦٥iDiF٤JwFSFXOMdb٣ee&index=٤&pp=iAQB

ابن رجب -رحمة الله تعالى عليه-: هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي الحنبلي، كنيته أبو الفرج، ولقبه زين الدين، وُلِد في بغداد.

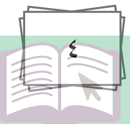
وبالمناسبة: بغداد والشام أخرجا لنا علماء كثر، ونسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يملأ بلاد المسلمين عامة بأهل العلم الذين يصدعون بالحق، وينشرون دينه.

وُلِد ابن رجب -رحمة الله تعالى عليه- في بغداد سنة سبعمائة وستة وثلاثين، وله عدة مشايخ من أبرزهم ابن القيم -رحمة الله تعالى عليه-، وله تلاميذ من أبرزهم أحمد بن نصر الله البغدادي. وله مؤلفات، ومن أشهرها: [شرح علل الترمذي]، وأيضًا [شرح فتح الباري]، وشرح البخاري وسماه [فتح الباري] شرحه قبل ابن حجر، ثم ابن حجر جاء بعد ابن رجب، وشرح البخاري وسماه فتح الباري، واستفاد ابن حجر من ابن رجب؛ لكن الذي سبق بالتسمية ابن رجب، ولم يكمله، وإنما شرحه إلى كتاب الجنائز، وهو شرح نفيس للغاية. وله شرح للنووي، للأربعين النووية، واسمه [جامع العلوم والحكم].

ومات -رحمة الله تعالى عليه- في رمضان وقيل في شهر رجب، عام سبعمائة وخمسة وتسعين، في دمشق، وُلِد في بغداد ومات في دمشق.

ويقال -وهذا موجود في سيرته-: أنه جاء للمسئول عن حفر القبور وقال له: احفر لي قبراً هنا، وحدد موضعًا، وحفر له، ولما جاء من الغد، وقال له: أين ما حفرت لي؟ قال: ها هو، نزل فيه ابن رجب، وقاسه على نفسه، وقال مناسب، وما هي إلا أيام قلائل وتوفي ودفن في نفس القبر -رحمة الله تعالى عليه-.

له هذه الرسالة وهي من أنفس الرسائل، وهي في [ذم قسوة القلب]، ونحن اليوم في واقعنا نحتاج كثيرًا إلى فقه القلوب، ولما كان القلب هو معيار صلاح الدنيا والآخرة للإنسان كانت الغفلة عنه أعظم وأعظم.



لماذا جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- صلاح الجسد كله بصلاح القلب؟ لكثرة من يغفل؛ ولذلك حَرَّص النبي -صلى الله عليه وسلم- أُمَّتَه على التنبُّه للقلب، وإصلاح القلب هو من أعظم أو أعظم ما يهتم به العبد.

واليوم أكثر ما نغفل عنه ماذا؟ القلب، ولن تسعد، ولن تصلح لك الدنيا ولا الآخرة حتى يكون قلبك هو معيار مراقبتك في اليوم والليلة.



رسالة الذَّمِّ من قسوة القلب للحافظ ابن رجب الحنبلي -رحمه الله-

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الإمام العلامة الحافظ زين الدين ابن الشيخ أبو العباس أحمد بن رجب – فسح الله في مدته ونفع به:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رسالةٌ في ذمِّ قسوة القلب وذكر أسبابها وما تزول به. أمَّا ذمُّ القسوة، فَقَالَ تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

ثم بَيَّن وجه كونها أشدّ قسوة، بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

هنا بدأ ابن رجب –رحمة الله تعالى عليه– بهذه الآية العظيمة، وهي: ما عاتب به الله –جلَّ وعلا– بني إسرائيل، حينما قال الله –جلَّ وعلا–: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

وهذا يؤخذ منه أمران:

الأمر الأول: أن القلوب تقسى.

والقسوة هي: الغلظة والشدة واليبس، كلها معانٍ جاءت في اللغة، وأنهم لم ينتفعوا بما شهدوه من آيات الله –جلَّ وعلا–، وإحياءه للموتى، فأصبحت قلوبهم قاسية لا تنتفع.

لاحظ! لماذا عاتبهم الله –عزَّ وجلَّ– بقسوة القلب؟



لأن قلوبهم لا تنتفع، وكلما كان القلب أبعد عن الله -جلَّ وعلا-، وكلما كانت تمر به الأوامر والمواعظ؛ يحضر الجمع ويحضر الخطب ويحضر الدروس ويرى المواعظ ويرى شيئًا كثيرًا، ويريه الله -عزَّ وجلَّ- من الأمور التي يتعظ بها القلوب وهو لم يتغير، فهذه علامة على قسوة القلب.

والأمر الثاني: أنك حينما تأخذ هذا الحجر، وتحاول أن تلينه، ولا تستطيع، اعلم أن القلب قد يصل إلى مرحلة أن يكون ليس مثل الحجر، أي: أنا لو أعطيتك حجر، قلت لك: لَيِّن هذا الحجر، قلت لي: كيف؟! هذا لا يمكن أن يلين، ولو قلت لك تصور أن قلبك يكون مثل هذه الحجارة! لتأملت في آيات الله -جلَّ وعلا-.

تقول لي: ما هو الأثر؟ وما هو الدليل؟

أقول الدليل: حينما يكون قلبك مثل الحجارة أنت لا تنتفع بالمواعظ، وتمر عليك آيات الله -جلَّ وعلا- ولا تنتفع، تسمع آيات الله -جلَّ وعلا-، وتحضر الخطب والدروس، وتسمع المواعظ، وترى كثيرًا من الأشياء في الواقع ومع ذلك لا يلين قلبك!

ليس فقط أن تخشى أن يكون قلبك مثل هذه الحجارة؛ بل قد يكون أشد قسوة من هذه الحجارة. هل تتصورن أن يبلغ قلب أحدنا أن يكون مثل الحجارة أو أشد؟! الله -عزَّ وجلَّ- يخبرك عن هذه الحقيقة التي وقعت لبني إسرائيل.

والسبب في ذلك: أنهم لم يمتثلوا؛ ولذلك هذا من آثار قسوة القلب.

وبيَّن الله -عزَّ وجلَّ- في الآيات الأخرى، قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾، وقال الله -جلَّ وعلا-: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾.

من يخاطب الله -جلَّ وعلا- هنا؟ يخاطب المؤمنين. ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾، يقول ابن مسعود -رضي الله عنه- «ما كانَ بيْنَ إسْلَامِنَا وبيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ بهذِه الآيَةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾ إلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ».

لاحظ! بعدما أسلم نزلت الآية بعد أربع سنوات، عاتبهم الله -عزَّ وجلَّ- أما آن الوقت أن يخشع هذا القلب لذكر الله وما نزل من الحق؟!

الآن أين محل ذكر الله -جلَّ وعلا- من القلب؟! لا اللسان ذاكر، ولا الأذن إذا سمعت تلك الذكرى أثَّر بها واتعظت، والبعد عن الله -جلَّ وعلا- علامة من علامات قسوة القلب.

ولذلك هذا المعنى الذي يجرّنا إلى أننا نحاول أن نراجع أنفسنا ونراقب قلوبنا دومًا وأبدًا. وفي الحقيقة من أكثر الأشياء التي نغفل عنها في حياتنا هي قلوبنا؛ ولذلك تجد كثير من الناس يهتم بجُلّ شأنه. وربما لو جَرَدْتَ أنت اهتماماتك في اليوم والليلة اهتممت بعملك، وبأولادك، وبطعامك، وبلباسك، وبأشياء كثيرة من حياتك. ولو قلت لك: ما هو اهتمامك بقلبك؟ لوجدت إجابات مؤسفة، وهذا إن دل على شيء دل على الغفلة الكبيرة في نفوسنا -نسأل الله السلامة والعافية-.

ولذلك جاءت أدلة كثيرة في ذم قسوة القلب، والبعد عن الله -جلَّ وعلا-، والعتاب من الله -جلَّ وعلا- للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله.

﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: لا يكونوا مثل أهل الكتاب، مثل اليهود والنصارى. ما حالهم؟ طال عليهم الأمد، طالت أيامهم، عاشوا أيامًا، أعمارنا عشرين، ثلاثين، أربعين، خمسين، طالت الأعمار، نخرج من المساجد وننشغل في دنيانا، ولربما دخلنا في مساجدنا وفي صلواتنا ونحن منشغلون في دنيانا، ابتعد الموت كثيرًا، وذكر الموت كثيرًا عنا، يعظك الله -عزَّ وجلَّ- بآياته الشرعية، ويعظك الله -عزَّ وجلَّ- بآياته الكونية، ويعظك الله -عزَّ وجلَّ- بأقداره، يريك فلان مات وفلان مات، ومع ذلك لا يتحرك القلب، هل خشوعك وهل العظة والعبرة اليوم مثل ما كانت قبل سنوات؟! أما ازدادت تلك الغفلة، وزاد الانشغال في الدنيا كثيرًا وكثيرًا.

كل هذا بسبب ماذا؟ بسبب أننا لم نهتم بالقلب كثيرًا، وإلا لو اهتم الإنسان بقلبه كثيرًا لهدأت نفسه، وكان مقبلًا على الآخرة، زاهدًا في الدنيا، وكان يراعي حق الله -عزَّ وجلَّ- في كل شيء من أمور حياته.

طول الأمد هو من أسباب قسوة القلب، وليس المقصود بطول الأمد طول العمر، المقصود بطول الأمد: هو تلك الغفلة التي في القلب، التي استراحت لمد العمر.

أما طول العمر فقد يكون خير للإنسان؛ كما ورد في الحديث الشريف: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وحَسُنَ عَمَلُهُ. قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ».

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، أي: أن هذه حالهم. لاحظ! وصفهم بماذا؟

ما وصفهم بالكفر، بل وصفهم بالفسق، وهذا فيه مناسبة للآية؛ فإن كثرة المعاصي تُصَيِّر الإنسان من أهل الفسق، وحينما يكون كذلك يكون قلبه أبعد عن الله -جلَّ وعلا-، وأكثر غفلة.

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، فوصف أهل الكتاب بالقسوة، ونهانا عن التشبه بهم.

قال بعضُ السلف: لا يكون أشدّ قسوة من صاحب الكتاب إذا قسا.

(من صاحب الكتاب)، أي: من أهل الكتاب.

والله -عزَّ وجلَّ- قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، وهذا وعيد للذين ابتعدت قلوبهم عن ذكر الله -جلَّ وعلا-.

الله -عزَّ وجلَّ- يريد أن ينبّهك على الزاد في الحياة الدنيا، ويخبرك أن ذكر الله -جلَّ وعلا- هو الذي يُقَوِم لك حياتك، ليست حياتك الأخروية والدينية فقط، وإنما -أيضًا- حياتك الدنيوية، فلن يستقيم لك حال حتى تكون أنت من أولئك الذين يذكرون الله -عزَّ وجلَّ-، ويتأملون آيات الله -جلَّ وعلا- . وبهذا يكون الإنسان ممن يلين قلبه لذكر الله -جلَّ وعلا-.

وهذا وعيد الشديد ﴿فَوَيْلٌ﴾، والله -عزَّ وجلَّ- لا يريد أن يعذبك، وإنما يريد -عزَّ وجلَّ- أن ينبّهك إلى أن البُعد عنه -جلَّ وعلا- يوردك المهالك، ويوردك الويل.

والإنسان إذا غفل وغفل عن هذا كثيرًا، فإنه ولا شك سيكون ممن يتعرّض لكثير من المعاصي ثم سيتعرّض لكثير من المحاسبة. ولذلك قال بعضُ السلف: (**لا يكون أشدّ قسوة من صاحب الكتاب إذا قسا**).

وفي "الترمذي"، من حديث ابن عمر قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنِ اللهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي».

هذا الحديث وإن كان معناه صحيح؛ لكنه ضعيف، فيه إبراهيم بن عبد الله بن حاطب، وهو رجل ضعيف.

وفي "مسند البزَّار"، عن أنس، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "أَرْبَعَةٌ مِنَ الشَّقَاءِ: جُمُودُ الْعَيْنِ، وَقَسَاوَةُ الْقَلْبِ، وَطُولُ الأَمَلِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الدُّنْيَا".

وهذا -أيضًا- ضعيف، وهو ضعيف جدًا، فيه رجلان الأول هانئ بن المتوكل، وهذا عنده مناكير كثيرة، والثاني عبد الله بن سليمان، وهذا مجهول.

وذكره ابن الجوزي في "الموضوعات"، من طريق أبي داود النخعي الكذَّاب.

وهذا وضَّاع.

عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أنس. وقال مالك بن دينار: ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب. ذكره عبدُ الله بن أحمد في "الزهد". وقال حُذيفة المرعشي: ما أُصيب أحدٌ بمصيبة أعظم من قساوة قلبه. رواه أبو نُعيم.

وهذان الأثران من آثار السلف، -رحمة الله تعالى عليهم- (**وقال مالك بن دينار: ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب**)، أي: قد تكون أنت مُعَاقَب وأنت لا تشعر، حينما يقسو القلب يخشى الإنسان أن تكون هذه عقوبة من الله -جلَّ وعلا-.

ولذلك عليه ماذا؟ عليه أن يراجع نفسه، وأن يلين قلبه بذكر الله -جلَّ وعلا-، ويبتعد عن أسباب قسوة القلب. وذكر المؤلف أسباب قسوة القلب.

وأمَّا أسبابُ القسوة فكثيرة:

منها: كثرةُ الكلام بغير ذكر الله؛ كما في حديث ابن عمر السابق.

وهذا تقدّم معنا، حديث ابن عمر تكلّمنا عنه أنه حديث ضعيف.

وأول أسباب قسوة القلب التي ذكرها المؤلف: (**كثرةُ الكلام بغير ذكر الله**)

وكم هي تلك المجالس التي نجلسها، ثم تقسو القلوب وتقوم عن تلك المجالس، ولم تذكر الله -جلَّ وعلا-، ما أكثر مجالسنا اليوم التي هي على هذه الصفة. ويقول النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيْهِ ، وَلَمْ يُصَلُّوا فيه عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِم تِرَةٌ يَوْمُ القِيَامَةِ»، أي: حسرة.

وكم هي المجالس التي والله يخشى الإنسان أنها تكون عليه يوم القيامة حسرة.

لذلك ينبغي للعبد دومًا وأبدًا إن لم يكن المجلس مجلس ذكر: أن يذكر الله -جلَّ وعلا- فيه، وأن يُصَلِّي فيه ويُسَلِّم على النبي وعلى آله. وجاء في لفظ آخر: «إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيْفَةِ حِمَارٍ»، تصور! وهذا تشبيه من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يُبَيِّن كراهة هذا المجلس، وأنه مجلس مذموم فصوره النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الصورة.

واستدل المؤلف هنا بحديث ابن عمر، وتقدم معنا أنه حديث ضعيف، لكن مجالسنا اليوم تشتكي كثيرًا من قِلَّة الذِّكْر.

ونحن بحاجة إلى أن نُعَوِّد أنفسنا على أن تكون الأرض شاهدة لنا لا علينا، ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فهذه الأرض وهذه البقاع التي تأتيها تُحَدِّث عنها تلك الأخبار التي عُمِلَت عليها؛ تُحَدِّث عما عُمِل عليها من خير أو شر. ولكم جئتَ إلى مكان ومجلس، وأرض ربما بعيدة، أو في السماء حَلَّقْتَ بطائرة، ثم لم تستغل هذا المكان في أن يشهد لك يوم القيامة. بل أصبحنا نشتكي من مجالسنا.

وكانت المجالس سابقًا، كما كان حال السلف -رحمة الله تعالى عليهم-، وهذا ورد عن أكثر من واحد من السلف يقول: [ما أحببت البقاء في الدنيا إلا لثلاث: لقيام ليل الشتاء، ولصيام ظمأ الهواجر، ولصحبة الإخوان]

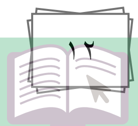
لماذا؟ لأنهم كانوا يتقوّون بإخوانهم؛ إذا ذهبوا إلى مجلس وجدوا من يذكرهم.

لكننا اليوم أصبح حالنا يخرج أحدنا من المجلس ويتمنَّى أنه لم يأت إلى ذلك المجلس، أي: يخرج من المجلس ويتغيَّر قلبه، كان الأولى أن يتغيَّر قلبه للأفضل؛ لاسيما وأن الإنسان يختار الصالحين لجلوسه معهم، لكن اليوم أصبحت كثير من المجالس هي مجالس دنيا، ومجالس الآخرة قليلة.

ولذلك تجد أن مجالس العلم هي مجالس الآخرة، لها آثار في الدنيا وفي الآخرة، يُحمد عقباها ويُسر بها الإنسان، ويوم القيامة يجد الأثر البالغ لذلك ويُسر به تمام السرور.

يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «مَنْ سَلَكَ طَرِيْقًا يَلْتَمِسُ فِيْهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيْقًا إِلَى الْجَنَّةِ»، لاحظوا! التماس، فقط التماس، لم يطلب منك أن تحفظ كذا وكذا، أو تطلب العلم بمقدار كذا أو تحضر كذا وكذا وتقرأ كذا وكذا، فقط مجرد التماس، هذا يبين لك فضيلة العلم.

«مَنْ سَلَكَ طَرِيْقًا يَلْتَمِسُ فِيْهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيْقًا إِلَى الْجَنَّةِ»، الجَنَّة هي المُبتغى، ومع ذلك جعل فيه مجرد التماس العلم، وأن تكون على طريقه، لا يحتاج أن تحفظ كذا، أو أن تذاكر كذا، هذه فضائل إن زدتها فزدت من الخير، لكن ما دمت على طريق العلم فأنت داخل في هذا الحديث، هذا فضل الله -عزَّ وجلَّ- الواسع، ومع ذلك تجد أن مجالس العلم يقل أهلها، وهذا ليس بمتعجب؛



لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبرنا أنه بين يدي الساعة، كما جاء في الصحيحين: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَقِلَّ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ».

وجاء في رواية أخرى: «ويَقِلُّ العَمَلُ»، وأنت لو لاحظت نفسك تجد أن عملك قد قل عمَّا كان عليه سابقًا.

ومنها: نقض العهد مع الله تعالى. قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

لاحظ! نقض العهد. حينما تعِد وعْدًا، وتنقض عهدًا؛ فإن نقض العهد من أسباب قسوة القلب، وهؤلاء الذين نقضوا العهد حصلت لهم مفسدتان:

المفسدة الأولى: اللَّعنة، ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾، أي: طردناهم من رحمتنا.

والمفسدة الثانية: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

ولذلك من نقض العهد -مثلًا-: شخص مريض، شخص ألمَّت به مُلَمَّة، قال: لله عليَّ إن شفا الله مريضي أن أفعل كذا وكذا، أو يُصيبه مرض سرطان أو نحو ذلك، ثم تجده متبتّل، مُكْثِر للعبادة، محافظ على الصلوات، ويقول: يا ربي اشفني وارفع عني هذا المرض وسأكون عبدك الذي يدعو إلى الله -عزَّ وجلَّ-، ويعد الله وعود كثيرة، فلما شفاه الله -عزَّ وجلَّ- رجع لغفلته؛ ففعله هذا من أسباب قسوة القلب.

ولذلك عاتب الله -عزَّ وجلَّ- وبيَّن حال الكفار والمنافقين، فقال -جلَّ وعلا- عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

وكثير ما يَعِد الإنسان، وحينما تُلِم به مُلِمَّة أو ضائقة يذهب ويدعو الله -عزَّ وجلَّ-، وهذا شيء جيد، لكن يَعِد ويُعَاهِد ويَنْذُر ونحو ذلك، ثم لا يفي، هذا من علامات قسوة القلب.



وأشد منه: من إذا أَلَمَّت به مُلِمَّة لم يتضرَّع إلى الله -عزَّ وجلَّ-، هذا بلغ الغاية في قسوة القلب. ودليل ذلك: قول الله -جلَّ وعلا- ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ما تضرَّعوا، بل قست قلوبهم، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قال ابنُ عقيل يومًا في وعظه: يا من يجد من قلبه قسوة، احذر أنْ تكون نقضت عهدًا؛ فإنَّ الله يقول: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ الآية.

ومنها: كثرةُ الضَّحك؛ ففي الترمذي، عن الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «لاَ تُكْثِرُوا الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ».

هذا حديث ضعيف لا يصح؛ لأن فيه انقطاع بين الحسن البصري وأبي هريرة -رضي الله عنه، فالحسن البصري لم يسمع عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، فهو حديث ضعيف عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

لكنه من أقوال الحسن البصري، وليس مرفوعًا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ورفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه ضعف؛ لأنه وجد انقطاع بين الحسن البصري وبين أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه-.

ولذلك قال المؤلف: (**وقال: روي عن الحسن قوله**)، أي: إن هذا من أقوال الحسن، وهذا صحيح. وللحسن -رحمه الله ورضي عنه- مقولة أخرى، قال: [ضَحِك المؤمن غفلة من قلبه]. والمراد هنا: كثرة الضحك.

النبي -صلى الله عليه وسلم- كان كثير التبسُّم، لكن الغفلة وكثرة الضحك هي التي من مُسَبِّبَات قسوة القلب، أما هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- فكان يتبسَّم كثيرًا، والضحك حينما يكون يسيرًا فإنه يهون كثيرًا عند شخص من شأنه أن يضحك كثيرًا وأن يُحَوِّل مجالسه وأموره كلها للضحك.

يقول الصحابي عبدالله بن الحارث -رضي الله عنه-: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وخرج ابنُ ماجه، من طريق أبي رجاء الجَزَري، عن برد بن سِنان، عن مكحول، عن واثلة بن الأسقع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ».

وهذا حديث ضعيف، لكن معناه صحيح؛ لتفرد أبي رجاء فيه، فإنه لا يُقْبَل تَفَرّده. وهو من الأحاديث التي حسّنها الألباني -رحمة الله تعالى عليه-، لكن هذا أبو رجاء مختلف فيه.

ومنها: كثرةُ الأكل، ولاسيما إنْ كان من الشُّبهات أو الحرام؛ قال بشر ابن الحارث: خصلتان تُقسِّيان القلب، كثرةُ الكلام وكثرة الأكل. ذكره أبو نُعيم.

وذكر المروذي في كتاب الورع، قال: قلتُ لأبي عبد الله -يعني أحمد بن حنبل-: يجد الرجلُ من قَلبه رِقَّة وهو شَبِع؟ قال: ما أرى.

هناك اختلاف في النسخ [وهو يشبع]، لكن -أيضًا- هذا من مُقَسِّيات القلب، وهو: (**كثرةُ الأكل، ولاسيما إنْ كان من الشُّبهات أو الحرام**)، فإن هذا طريق لعدم إجابة الدعاء، وطريق للتعرُّض لعقوبة الله -جلَّ وعلا-، فهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «كُلُّ جِسْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ». فيتقِ الإنسان ربه في أن يُطْعِم أهله وأولاده مما حرَّم الله -جلَّ وعلا-.

ولذلك نرى في واقعنا اليوم، كثير من المعاملات المالية التي يُتعامل بها، وربما أخذ الإنسان من الحرام وهو لا يشعر؛ فلابد أن يحتاط الإنسان لنفسه ولدينه.

يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في صحيح البخاري: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لا يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ؛ أَمِنَ الْحَلَالِ أَمْ مِنَ الحَرَامِ»، وهذا مشاهد -الله المستعان- ما يبالي، ولربما بحث عن مخرج له، ولربما بحث عن فتوى له، يريد أن يأخذ الدنيا بالفتاوى.

يحدّثني شخص يقول: شخص قد صف مع قائمة الذين ينتظرون أدوارهم في البنك لِيُسَاهِم في شركة من الشركات، وأمامه ثلاثة، وبدأ يتّصل على المشايخ واحد تلو الآخر، واحد تلو الآخر يريد أن أحدًا يرد عليه من أجل أن يسأله عن تلك المساهمة التي جاء من أجلها وهو ينتظر دوره. لاحظ! هذا شخص مُتَّجِه، مثل هذا هو يبحث عن شخص يقول له إنها حلال.

يقول: فرددت عليه، وقال لي: المساهمة الفلانية حلال أو حرام؟ قلت له: لا؛ هذه شركة ربوية محرمة، قال: نعم، مع السلامة. والأدوار تأتيه واحدة تلو الأخرى، واقترب دوره، ثم اتصل على شيخ آخر، وقال: قل لي بسرعة أنا الآن أريد أن أساهم حلال أو حرام؟ قال له: لا أعلم. قال: سأُساهم ما دام أن الأمر فيه شخص لا يعرف وشخص قال لي حرام، ربما هناك من يقول: حلال، وساهم بها.

وهذا ربما يحدث كثيرًا. وحدثني شخص آخر أعرفه يقول: جاءني شخص وطرق علي الباب، وخرجت له، قال: أُريد أن أقترض منك؛ أستسلف منك ألفين ريال. يقول: هذا الرجل الذي جاءني عنده من الأموال الشيء الكثير؛ تاجر من التُّجَار فتعجّبت، وقلت له: تريد ألفين؟ قال:نعم. قلت لماذا تُريدها؟ قال: أنا أريد أن أُضَحِّي، وأشتري أضحيتي. يقول: فدخلت عندي في المنزل مبلغ، وجئته بالألفين وأعطيته، وقد رأى ما في وجهي من التعجب، وقال: لعلك تعجبت منه ذلك؟ قلت: نعم. قال: والله إن مالي فيه خلط كثير من الحرام، وما تجرأت أن أدفع من الحرام في عبادة الله -جلَّ وعلا-.

لاحظ! هو أحس أن هذا المال سُحت عليه في الدنيا، كيف في الآخرة؟! ولذلك كثير من الناس لا يتورّع عن الحرام لاسيما في الأموال، لماذا؟ لأن النفوس مجبولة على حب المال. قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾، المقصود بالخير هنا: المال، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وادِيانِ مِن مالٍ لابْتَغَى وادِيًا ثالِثًا، ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلَّا التُّرابُ، ويَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن تابَ»، أي: ما يمكن أن يشبع حتى يموت، ويُدخل في قبره، «ويَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن تابَ» ما دام في الزمن مهلة، وما دام الإنسان على قيد الحياة فإنه



حينئذ يحاول أن يُصَــحِّح أمواله، ويحاول أن يُطَهِّر أمواله من كل شــيء ربما يجلب عليه العقوبة.

قال النبي -صـلى الله عليه وسـلم-: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْـأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: ... وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ كَسَـبَهُ وَفِيْمَا أَنْفَقَهُ»، سـوف تُسـأل عن هذا المال من أين اكتسـبته وفيما أنفقته، فأعدَّ للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا.

ولذلك فإن كثرة الأكل لاسيما من الحرام؛ هي من أسباب قسوة القلب، ومن أسباب عدم إجابة الدعاء. فهناك أحاديث:

منها: «أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُستَجَابَ الدَّعْوةِ».

وهناك حديث في صحيح مسلم: «ذَكَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّـمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْـرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُـهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ »، فالمسافر دعوته مستجابة، «يَمُدُّ يَدَيْهِ»، جاء بآداب الدعاء.

يقول: «يَا رَبِّ يَا رَبِّ»، هذا إلحاح، «وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْـرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُـهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ». ولذلك يتنبه الإنسان لمثل هذا.

ثم ختم المؤلف بحديث نختم به.

وفي "المسـند"، والترمذي، عن أبي هريرة عن النبي -صـلى الله عليه وسـلم- قال: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِـبُونَ﴾"وقال الترمذي: صحيح.

أي: أن الإنسان كلما استكثر من الذنوب والمعاصي كلما اجتمعت على قلبه فَقَسَا القلب، تُنْكَت نكتة سوداء، وأخرى سوداء، وأخرى سوداء حتى لا يقبل معروفًا ولا يُنْكِر مُنْكَرًا، ويكون هذا القلب بعيد عن الله -جلَّ وعلا- قاسٍ لا يتلذذ بآيات الله -جلَّ وعلا-، ولا يقترب من الله -جلَّ وعلا-،

وينتهك حرمات الله -جلَّ وعلا-، ويكون متجرئًا على كثير من المعاصي، ومُتعدِّيًا لكثير من حدود الله -جلَّ وعلا-.

ولذلك قال بعضُ السلف: (**البدن إذا عري رَقَّ، وكذلك القلب إذا قَلَّت خطاياه أسرعت دمعته**)، القلب يرق إذا قلَّت الخطايا لكون الإنسان دائمًا يستغفر. وهذا الحديث الذي مر معنا قبل قليل حديث حسن، حديث مقبول.

ولذلك يبادر الإنسان كلما اخطأ استغفر ورجع إلى الله -عزَّ وجلَّ-.

ثم جاء المؤلف بقول ابن المبارك:

(رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ ... وَيُتْبِعُهَا الذُّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ... وَالْخَيْرُ لِلنَّفْسِ عِصْيَانُهَا).

وهذه الأبيات وإن كانت منسوبة لابن المبارك، لكن الصحيح: أنها غير منسوبة لابن المبارك. ولا تصح نسبتها لابن المبارك -رحمه الله-.



مُزيلات قسوة القلب

ثم قال رحمه الله:

> وأمَّا مزيلاتُ القسوة، فمتعَدِّدَة أيضـًا:
>
> فمنها: كثرةُ ذكر الله الَّذِي يتواطأ عليه القلب واللِّسَان؛ قال المعلَّى بن زياد: إنَّ رجلًا قال للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أدنه من الذكر.
>
> وقال وهب بن الورد: نظرنا في هذا الحديث، فلم نجد شيئًا أرق لهذه القلوب ولا أشد استجلابًا للحق من قراءة القرآن لمن تدبَرَه.
>
> وقال يحيى بن مُعاذ، وإبراهيم الخواص: دواءُ القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتفكّر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرَّع عند السحر، ومجالسة الصالحين.

هذا السبب الذي يقوّي القلب، ويُذهب ما عليه من غبش، وما عليه من قسوة وصدأ، وهو: **ذكر الله** -جلَّ وعلا-.

ولا شك أن هذه العبادة عظيمة، ويسيرة، وسهلة؛ لكن الغفلة عنها كثير أهلها.

ذِكْر الله -جلَّ وعلا- يحتاج إلى قلب أولًا: يُدْرِك فضله، ويُدْرِك عظمته وأهميته.

ثم -أيضًا- يُدْرِك ثماره، ثمار هذا الذكر، وما الذي سيفعله هذا الذكر بقلبه.

حينئِذٍ يكون ماذا؟

حينئِذٍ يكون الإنسان مُبَادِر، ومُبْتَعِد عن صفة المنافقين، فإن الله -عزَّ وجلَّ- ذكر أن من صفات المنافقين قلّة ذِكر الله تعالى: قال -جلَّ وعلا- ﴿وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

نعم هم يذكرون الله -عزَّ وجلَّ- قليلًا؛ لكن ذكرهم لله -عزَّ وجلَّ- ليس خالصًا. وأنت فارقتهم بهذا، بأنك تذكر الله -عزَّ وجلَّ- بصدق، وأنّك تُرِيْد ما عند الله -جلَّ وعلا-؛ لكن



أكثر ما نغفل عنه ذكر الله -جلَّ وعلا-؛ ولذلك قال ابن القيم -رحمة الله تعالى عليه-: [وصدأ الْقَلْب بأمرين: بالغَفْلَة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر].

لماذا؟

لأن الاستغفار يُنَقِّي القلب من الأدران، والذِّكْر يُطَيِّبه، الذِّكْر يُطَيِّب النَّفْس، وكان السلف -رحمة الله تعالى عليهم- من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، كانوا لا يتركون هذا الأمر؛ لأهميته؛ ولأنهم تعلّموا من مدرسة محمد -صلى الله عليه وسلم-، الذي كان يذكر الله على كل أحيانه، والذي قال: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغفِرُ اللهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةٍ»، وجاءفي لفظ آخر: «مِئَةَ مَرَّةٍ».

هذا الذكر مع أهميته وعظمته إلا أننا نغفل عنه كثيرًا، وربما هو يحتاج إلى مجاهدة، أنت ربما تعرف أنواع كثيرة من الذِّكْر، وتعرف فضلها؛ لكنك لست من أهلها!

والسبب في هذا كلّه: الغفلة وصدأ القلب؛ لكنه مع المجاهدة، وتذكير النفس بأهمية الذكر، وتعويدها على ذلك، حينئذٍ يكون الإنسان من الذاكرين لله -عزَّ وجلَّ- دومًا وكثيرًا.

لو تأملت أنت، لوجدت أنك تذكر الله دبر كل صلاة، وتذكر أذكار الصباح والمساء، وتذكر أذكار النوم، وأذكار الطعام، وغيرها من الأذكار التي ربما أنت حافظت عليها، وربما أنت مقصر في بعضها؛ لكن كلما زدت اعلم أن القلب حينئذٍ يَلْين، وحينئذٍ تحل البركة.

بعض الناس يظن أن الذكر، وتفريغ وقت للذكر يضيق على الأمور الأخرى من طاعة وغيرها، لكن وأنت تعمل في عملك، أو أنت جالس في مجالسك العامة عود نفسك أن تذكر الله -عزَّ وجلَّ. حينما تكون أنت على سبيل المثال محافظ على ذكر معين وتعرف فضله، -مثلًا- قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ، فَيْ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ».



هذا الذكر لو تأملته -مثلًا- لن تجده في يومك، حاول أن تجعل هذا الذكر مما تُحَافِظ عليه في اليوم والليلة، ستجد في بداية الأمر مَشَقَّة، بل ربما يحتاج إلى مجاهدة؛ لكن ثق ثقة تامة أنك إن استمررت على هذا بعد شهر تقريبًا، سيكون هذا الذكر تقوله كما تقول أنت أذكار الصباح والمساء بلا عناء.

اليوم هناك من الناس من يصعب عليه أن يُحَافظ على أذكار الصباح والمساء، أنت لو سألتك لقلت: لا يمكن أن أترك أذكار الصباح والمساء.

ما الذي جعلك تصل إلى هذه المرتبة؟ المداومة والاستمرار «وَكَانَ آلُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا عَمِلُوا عَمَلًا أَثْبَتُوهُ»، كما تقول عائشة -رضي الله عنها-، وقالت كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ؛ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ»، وعائشة -رضي الله عنها- تنقل هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، ونقلت أيضًا هدي أهل بيته «وَكَانَ آلُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا عَمِلُوا عَمَلًا أَثْبَتُوهُ». والسلف -رحمة الله تعالى عليهم- كانوا ينظرون لمثل هذا الأمر نظرة خاصة، واهتمامًا خاصًا.

لماذا؟

لأنه قوت القلب؛ ولذلك ابن تيمية -رحمة الله تعالى عليه- كان يجلس بعد صلاة الفجر وكان ابن القيم ينقل هذا الموقف وهو مُتَعَجِّب، يجلس من بعد صلاة الفجر ويذكر الله -عزَّ وجلَّ- حتى ترتفع الشمس كثيرًا، ليس حتى تطلع الشمس، وإنما حتى ترتفع الشمس كثيرًا، قَدِّرْ هذا في زماننا -مثلًا- لشخص يذكر الله من بعد صلاة الفجر إلى الساعة الثامنة أو التاسعة، وهو يذكر الله فقط. لاحظ! ابن تيمية الذي ملأ الكون بعلمه، وجهاده، ومناظرته للمبتدعة، وكثرة فتاويه للناس، وإلى غير ذلك، وعبادته -أيضًا-، ومع ذلك يجعل وقت طويل وكبير للذكر، ولمَّا سُئِل؟ قال: هذه غدوتي، ولو لم اتغدَّاها لخارت قُوَاي.

كأنه يقول: هذا الذي ترونه أنتم من العلم، ومن الفتاوى، ومن الجهاد، ومن مناظرة المبتدعة، ومن الرد عليهم، ومن الحفظ، ومن النظر في المسائل وغيرها، فهذه الغدوة هي مصدر قُوَّتِي. ومع الأسف بعض الصالحين وبعض الناس يظن أنه لو جعل وقتًا خاصًا للذِّكْر، لا أقول أنه خاص أنه يُقَيِّده بوقت محدد، وإنما يجعله -أيضًا- من جدوله في اليوم والليلة، لرأى أن هذا مما يضيع عليه مصالح أخرى أو طاعات أخرى!

بل أن ابن تيمية -رحمة الله تعالى عليه- كان يخرج أحيانًا من البيوت إلى الصحاري من أجل أن يُمَرِّغ وجهه لله بالسجود، ومن أجل يستغفر الله -عزَّ وجلَّ-، ويذكر الله -عزَّ وجلَّ- خاليًا. يقول:

وَأخرجُ من بَيْنِ البيُوتِ لَعَلَّني　　أُحَدِّثُ عَنْكَ النَّفسَ فِي السِّرّ خَالِيًا

أي: أحيانًا يخرج من القرية، ويمكث لوحده في الخلاء في الأرض الفضاء من أجل أن يذكر الله -عزَّ وجلَّ-، ومن أجل أن يَتَضَرَّع إلى الله -جلَّ وعلا-.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- الذي نستقي منه الهدي كان يذكر الله على أحيانه.

أقول -أيها الإخوة- هذه العبادة هي سهلة في الاصل؛ لكنها تحتاج إلى مجاهدة وتعويد النفس على ذلك، كلنا نشتكي من هذا؛ لكن أن يمضي العمر ونُفَرِّط في الأجر والثواب والثمرة العظيمة في هذا، فهذا من أعظم الخسران.

ولذلك هنا يقول يحيى بن مُعاذ، وإبراهيم الخواص -وهما من السَّلَف-: **(دواءُ القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتَّفَكُّر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرَّع عند السحر، ومجالسة الصالحين)**.

(قراءة القرآن بالتَّفَكُّر) يقال في القرآن بالتدبر، وأما التفكر يكون في آيات الله الكونية.



أهل العلم يقولون: أن التفكر في آيات الله الكونية؛ في الجبال، وفي الشمس وفي القمر في حركة مسيرها ونحو ذلك. والتدبر يكون في آيات الله الشرعية، وهي الآيات المنزلة التي هي في كتاب الله -جلَّ وعلا-.

(**وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرُّع عند السحر، ومجالسة الصالحين**):

التضرع عند السحر ومجالسة الصالحين الآن مع طول اللَّيل، إلا أننا نُفَرِّط في قيام آخره ولو شيئًا يسيرًا، ولو أن تدعوا الله -عزَّ وجلَّ-، لكنك تدرك الوقت الفاضل الذي لله -عزَّ وجلَّ- فيه نزول يليق بجلاله.

(**ومجالسة الصالحين**)، كانوا يرون مجالسة الصالحين من أعظم مُقَوِّيَات الإيمان، ومُغَذِّيَات الإيمان؛ حتى أنه تواتر عن جمع من السَّلَف أنهم يقولون لاسيما عند الوفاة: [**والله لولا ثلاث لما أحببت البقاء في الدنيا: صيام ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، وصحبة الإخوان**].

كانوا يرونها من أعظم المقويّات، لكنّها اليوم في زماننا عزيزة، عزيزة للغاية؛ بل أنك -مع الأسف- تجد أن كثيرًا من المجالس حتى بعض مجالس الصالحين؛ تجد أنها لا تُفيدك بل قد تصل للآثام، ولو أنها حُمِلَت على المباح هذا شيء جيد، ولكن هناك من المجالس فيها ما فيها من الآثام، وفيها من الغيبة، وفيها من الكبائر الشيء الكثير -والله المستعان-. ولا نُعَمِّم في ذلك، لكن هذا مُشاهد وكثير.

وأصبح الإنسان حينما يأتي لبعض مجالس الصالحين يخرج بقلب غير القلب الذي أتى به، لكن ليس للأفضل، وإنما ربما تمنّى أنه لم يأتِ لهذه المجالس.

ومع هذا لا يُقَال: أن مجالس الصالحين اليوم مجالس ليست مُقَوِّيَة للإيمان، لا؛ لا زال في الناس خير، ولا زالت هناك مجالس للصالحين مجالس عظيمة ومُقَوِّيَة للإيمان، لكن يحتاج الإنسان إلى انتقاء تلك المجالس.



والأصل في إزالة قسوة القلوب بالذِّكْر قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

هذه الآيات جاء بها المؤلف -رحمة الله تعالى عليه- ليؤكد هذا المعنى، وهو: ذكر الله -جلَّ وعلا-، وأنه من أقوى مُغَذِّيَات الإيمان، ومما يلين القلب.

قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

وأهل التفسير على قولين في المُرَاد بالذِّكْر هنا:

قيل: المراد به التسبيح والاستغفار، وسائر الأذكار.

وقيل المراد بالذكر: القرآن.

ومن قواعد الترجيح عند المفسرين: أن الآية إذا كانت تحمل الوجهين فإنه يُحْمَل المعنى على الوجهين، فيقال: أنَّ قراءة القرآن كما أنها مما يلين القلب، ومما يُغَذِّي الإيمان، فكذلك سائر الذِّكْر. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾، أي: يزول قلقها، واضطرابها، ويحضر فرحها، وانشراحها، متى؟ بذكر الله -جلَّ وعلا-.

والله -عزَّ وجلَّ- عاتب المؤمنين -كما قال ابن مسعود- في قوله -جلَّ وعلا-: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ يقول ابن مسعود: «**لم يكن بين إسلامنا، وبين أن عاتبنا الله -عزَّ وجلَّ- بهذه الآية إلا أربع سنوات**»، فكيف بقلوبنا في هذا الوقت التي انشغلت كثيرًا بأمور الدنيا، والتي أصبح انصرافها لما عند الناس أكثر من انصرافها لذاتها؟!

وفي حديث عبد العزيز بن أبي روَّاد مُرسلاً، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: "إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبُ لَتَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيْدَ. قِيْلَ: فَمَا جَلَاؤُهَا يَا رَسُوْلَ اللهِ؟ قَالَ: تِلَاوَةُ كِتَابَ اللهِ وَكَثْرَةُ ذِكْرِهِ".

هذا الحديث ضعيف؛ لأن فيه عبدالعزيز بن أبي رواد، وسماعه من نافع سماع ليس بالمشهور؛ بل أنه فيه مقال، لاسيما في سماعه عن نافع، ونافع سماعه عن ابن عمر ثابت، لكن عبدالعزيز بن أبي رواد سماعه ليس قويًا؛ ولذلك فيه مقال.

وهنا -أيضًا- رُوِيَ مُرْسَلًا، أي: هناك في طريق آخر رُوِيَ مُتَّصِلًا، لكنه عن نافع، وقلنا: سماع عبدالعزيز بن أبي رواد عن نافع ليس بالقوي.

ومنها: الإحسانُ إِلَى اليتامى والمساكين؛ روى ابن أبي الدنيا: ثنا علي بن الجعد، حدثني حماد بن سلمة، عن أبي عمران الجوني، عن أبي هريرة: "أَنَّ رَجُلًا، شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ: "إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ فَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ". إسناده جيد.

هذا الحديث -أيضًا- لا يصح؛ لأن فيه جهالة أبي عمران الجوني.

وهذا المعنى، وهو المسح على رأس اليتيم جاء فيه أحاديث كثيرة، لكنها لا تصح. وهناك أدلة أخرى -أيضًا- في هذا المعنى؛ لكن الأدلة الواردة فيها مقال؛ ولكن الإحسان على اليتيم، والإحسان بشكل عام لا شك أنّه من مَقَوِّيَات الإيمان، ومُرَقِّقَات القلب، ومما يجلأ ويُزيل صدأ القلب وقسوته.

وكذا رواه ابنُ مهدي عن حمَّاد بن سلمة، ورواه جعفر بن مُسافر: ثنا مُؤَمَّل، نا حماد، عن أبي عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر، عن النبي - صلى الله عليه وسلم -.

وهذا كأنَّه غيرُ محفوظ عن حمَّاد.

ورواه الجوزجاني: ثنا محمد بن عبد الله الرّقاشي، حدثنا جعفر، حدثنا أبو عمران الجوني مُرسلًا.



أيضًا هذا ضعيف؛ لوجود أبي عمران الجوني.

وروى أبو نعيم، من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن صاحب له:

أنَّ أبا الدرداء كتب إِلَى سلمان: "ارْحَمِ الْيَتِيمَ وَأَدْنِهِ مِنْكَ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَتَاهُ رَجُلٌ يَشْتَكِي قَسَاوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ: «أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ؟ فَقَالَ لَهُ: نَعَمْ. فَقَالَ: «أَدْنِ الْيَتِيمَ مِنْكَ، وَامْسَحْ رَأْسِهِ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُلَيِّنُ قَلْبَكَ وَتَقْدِرُ عَلَى حَاجَتِكَ»

قال أبو نُعيم: ورواه ابن جابر والمُطعم بن المقدام، عن محمَّد بن واسع أنَّ "أبا الدرداء كتب إِلَى سلمان مثله.

ونقل أبو طالب أنَّ رجلاً سأل أبا عبد الله –يعني أحمد بن حنبل– فَقَالَ له: كيف يرقُّ قلبي؟ قال: ادخل المقبرة، وامسح رأس اليتيم.

أيضًا هنا قال: (وروى أبو نعيم، من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن صاحب له) لاحظوا! قوله: (عن صاحب له:)، هل هذا الصاحب صحابي؟ لا.

ماذا قال بعده؟ (أنَّ أبا الدرداء كتب إِلَى سلمان)

وأبو الدرداء –رضي الله عنه وأرضاه– وسلمان الفارسي –رضي الله عنه وأرضاه– صحابيان؛ لكن الذي قبلهما من؟ صاحب له.

وهذه عِلَّة في السَّنَد؛ لأن الجهالة إذا كانت جهالة الصحابي لا تضر؛ لأن الصحابة كلّهم عدول. والذي عدَّلهم النبي –صلى الله عليه وسلم– كما في قوله: «خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي».

لكن جهالة من قبله لا تُغْتَفَر، وتُصَيِّر الحديث إلى حديث ضعيف.

قال: "ارْحَمِ الْيَتِيمَ وَأَدْنِهِ مِنْكَ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَتَاهُ رَجُلٌ يَشْتَكِي قَسَاوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ: «أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ؟ فَقَالَ لَهُ: نَعَمْ. فَقَالَ: «أَدْنِ الْيَتِيمَ

مِنْكَ، وَامْسَحْ رَأْسِهِ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُلَيِّنُ قَلْبَكَ وَتَقْدِرُ عَلَى حَاجَتِكَ»

لكن هذا الحديث -كما ذكرت لكم- ضعيف.

قال أبو نُعيم: ورواه ابن جابر والمُطعم بن المقدام، عن محمَّد بن واسع أنَّ "أبا الدرداء كتب إِلَى سلمان مثله"

وهذا -أيضًا- إسناده ضعيف.

ونقل أبو طالب أنَّ رجلاً سأل أبا عبد الله -يعني أحمد بن حنبل- فَقَالَ له: كيف يرقُّ قلبي؟ قال: "ادخل المقبرة، وامسح رأس اليتيم"

وهذا من قول الإمام أحمد -رحمه الله-.

ومنها: كثرةُ ذكر الموت؛ ذكر ابنُ أبي الدُّنْيَا بإسناده، عن منصور بن عبد الرحمن، عن صفية "أنَّ امرأة أتت عائشة لتشكو إليها القسوة. فقالت: أي: عائشة -رضي الله عنها-
"أكثري ذكر الموت، يرق قلبك وتقدرين عَلَى حاجتك. قالت: ففعلت، فآنست من قلبها رشدًا، فجاءت تشكر لعائشة -رضي الله عنها-".

وكان غيرُ واحد من السلف، منهم سعيد بن جُبير، وربيع بن أبي راشد يَقُولُونَ: لو فارق ذكرُ الموت قلوبنا ساعة لفسدت قلوبُنا.

وفي "السُّنن" عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ» الموت.

وروي مُرسلاً عن عطاء الخراساني قال: "مَرَّ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمَجْلِسٍ قَدْ اسْتَعْلَاهُ الضَّحِك فَقَالَ: شُوبُوا مَجْلِسَكُمْ بِذِكْرِ مُكَدِّراتِ اللَّذَّاتِ. قَالُوا: وَمَا مُكَدِّرَات اللَّذَّاتِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الْمَوْتُ".

ثم ذكر الثالث قال: (**ومنها:**)، أي: من مزيلات قسوة القلب (**كثرةُ ذكر الموت**).

وهذا السبب سبب رئيس، ولا شك أنه من أعظم أسباب مُرَقِّقَات القلب، ومُزِيلات قسوته، وكم يحتاج الإنسان اليوم إلى أن يتذكّر الموت كثيرًا، سواءً لوحده أو حينما يزور المقابر، أو يتذكّر من مات من الأموات ممّن قدّر الله -عزَّ وجلَّ- عليهم أن يموتوا.

قدّر الله عليهم أن يموتوا وانتهت آجالهم وأبقاك أنت؛ حتى تستزيد من الحسنات، وحتى تتوب إلى الله -عزَّ وجلَّ-، وهذه نعمة عظيمة؛ ولذلك ينبغي للعبد دومًا وأبدًا أن يتذكّر هذه النعمة.

قال: **ذكر ابنُ أبي الدُّنْيَا بإسناده، عن منصور بن عبد الرحمن، عن صفية "أنَّ امرأة أتت عائشة لتشكو إليها القسوة. فقالت:** أي: عائشة -رضي الله عنها- **"أكثري ذكر الموت، يرقّ قلبك وتقدرين عَلَى حاجتك. قالت: ففعلت، فآنَسَتْ من قلبها رُشْدًا، فجاءت تشكر لعائشة -رضي الله عنها-".**

وقال أيضًا: **وكان غيرُ واحد من السَّلَف، منهم سعيد بن جُبير، وربيع بن أبي راشد يَقُولُونَ: لو فارق ذكرُ الموت قلوبنا ساعة لفسدت قلوبُنا.**

وقال أيضًا: **وفي "السُّنن" عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ» الموت.**

وقال أيضًا: **وروي مُرسلاً عن عطاء الخراساني قال: "مر رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - بمجلس قد استعلاه الضحك فَقَالَ: شُوبوا مجلسكم بذكر مكدّرات اللّذات. قالوا: وما مُكدرات اللّذات يا رسول الله؟ قال: الموت".**

طبعًا هذا الأثر لا يصح؛ لأنه مُرْسَل، وذكر ابن رجب -رحمة الله تعالى عليه- أنه مُرْسَل، والمُرسل هو الذي أرسله التابعي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، أي: لا يوجد صحابي بين التابعي وبين قول النبي -صلى الله عليه وسلم-.

لكن ذكر الموت لا شك أنه من مُرَقِّقَات القلب، وكم إنسان حي قلبه بعد ماذا؟ بعدما اعتبر بمن مات، واعتبر بمن رحل، وأن الله -عزَّ وجلَّ- منَّ عليه أن أبقاه في هذه الحياة من



أجل أن يستزيد من الطاعة؛ لأن طول العمر مع الطاعة خير للإنسان؛ وورد في الحديث الشريف: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: "مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وحَسُنَ عَمَلُهُ"، قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: "مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ"».

تأمل أنت بمن مات، من هو دونك، ومن هو أعلى منك سنًا، ومن هو من أقرانك، قد اختارهم الله -عزَّ وجلَّ- أن يموتوا في يوم من الأيام وأبقاك أنت؛ حتى تعتبر.

تأمل! في أي شخص مات، ثم تذكّر حاله الآن! يا تُرى ما حاله؟ هل هو مُنَعَّم أم مُعَذَّب؟ ثم انظر ما امتن الله -عزَّ وجلَّ- به عليكَ أن أبقاك، توبة واحدة صادقة لله -جلَّ وعلا- تمحو كل ما سبق، عمرك هذا الذي مضى تستطيع أن تستغفر من كل هذه السيئات التي مضت بتوبة صادقة لله -جلَّ وعلا-؛ ولذلك التوبة أعظم عبادة؛ لأنها تجلو كل سيئة.

ومنها: زيارةُ القبور بالتَّفكُّر في حال أهلها ومصيرهم؛ وقد سبق قولُ أحمد للَّذي سأله ما يُرِقُّ قلبي؟ قال: ادخل المقبرة.

وقد ثبت في "صحيح مسلم"، عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: «زُورُوا الْقُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ».

وعن بُريدة، أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ» رواه أحمد، والترمذي وصححه.

وعن أنس، أنَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، ثُمَّ قَدْ بَدَا لِي أَنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، فَزُورُوهَا وَلاَ تَقُولُوا هُجْرًا" رواه الإمام أحمد ، وابن أبي الدُّنْيَا.

ثم قال بعد ذلك: (ومنها:)، أي: من مزيلات قسوة القلب.

قال: (زيارةُ القبور بالتَفَكُّر في حال أهلها ومصيرهم؛ وقد سبق قولُ أحمد للذي سأله ما يُرِقُّ قلبي؟ قال: ادخل المقبرة.

وقال أيضًا: وقد ثبت في "صحيح مسلم"، عن أبي هريرة"، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– وقال: «زُورُوا الْقُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ المَوْت».

وقال أيضًا: وعن بُريدة، أنَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ» رواه أحمد، والترمذي وصحّحه.

وقال أيضًا: وعن أنس، أنَّ النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، ثُمَّ قَدْ بَدَا لِي أَنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، فَزُورُوهَا وَلاَ تَقُولُوا هُجْرًا" رواه الإمام أحمد، وابن أبي الدُّنْيَا.

وهذا الحديث الأخير حديث أنس ضعيف؛ لأن في سنده يحيى بن الحارث، وهو رجل ضعيف.

لكن زيارة القبور لاشك أنها من مُرَقِّقات القلب؛ والآن ربما كثير من الناس يقول أنا أمر على القبور، وندفن الموتى؛ ولكن لا نتّعظ ولا نعتبر، وصارت رؤية الأموات لا نتّعظ منها.

كان السلف –رحمة الله تعالى عليهم– إذا ذهبوا ليدفنوا ميتًا علاهم الذُّل والخشوع والضَّرَاعة، حتى يقول قائلهم: لا ندري من هم أصحاب هذا الميت، واليوم ربما العكس، ربما رأيت من أصحاب هذا الميت من لم يتأثر، وربما لو حاولت أن تُفَتِّش من هم أصحاب الميت ما استطعت في بعض الجنائز.

وقد يقول قائل: أنا أزور المقابر، أو أنا أرى هذه القبور حينما أدفن هؤلاء الموتى، وربما أحمل معهم؛ ولكن لا يتذكّر قلبي.

نقول: أولًا جَرِّب أن تأتي بلا دفن ميّت، تأتي تزور المقبرة، وهذه سُنَّة مُنْدَثِرَة.

متى طبّقتَ هذه السُّنَّة؟! أن تذهب إلى المقبرة من أجل فقط أن تزور القبور وتدعو لهم، وتَتَذَكَّر وتَتَفَكَّر في حالهم؟

زيارة القبور لوحدها لاسيما في زماننا وواقعنا اليوم الذي كثر فيه كثير من الملهيات؛ لا تكفي، وإنما تَفكَّر، انظر إلى هذه القبور وتَفكَّر في حال أهلها، وتَفكَّر من المُعَذَّب ومن الْمُنَعَّم، وكيف أن الله -عزَّ وجلَّ- قد قضى آجالهم وأبقاكَ أنت حتى تستكثر وتتوب إلى الله -جلَّ وعلا-.

التَفَكُّر والتذكُّر هو الذي نفتقده اليوم حينما ندخل المقابر.

الأمر الثاني: زيارة المقابر بلا دفن جنازة، وإنما تَقَصُّدُ الزيارة؛ لأنك إذا تَقَصَّدْت الزيارة دعاك ذاك للتَّفَكُّر، بينما لو ذهبت لتدفن الجنازة فإنك ستنشغل بهذا.

ولا شك أن التَّفَكُّر والتَّأَمُّل في حال الأموات عمومًا ولو من دون زيارة؛ ستجعل الإنسان يعرف مِنَّة الله -عزَّ وجلَّ- عليه، ويعرف أن العُمُر فُرْصَة ثمينة لا يُمْكِن أن تُعَوَّض، ولو كانت تُعَوَّض لعُوِّضَت لهؤلاء الأموات.

وذكر ابنُ أبي الدُّنْيَا، عن محمد بن صالح التمار قال: كان صفوانُ بن سليم يأتي البقيع في الأيام فيمر بي، فاتبعته ذات يوم. وقلت: والله لأنظرنَّ ما يصنع. قال: فَقَنَّع رأسه وجلس إِلَى قبر منها، فلم يزل يبكي حتى رحمته.

قال: ظننتُ أنه قبر بعض أهله. قال: فمَرَّ بي مرة أخرى، فاتبعته فقعد إِلَى جنب قبر غيره. ففعل مثل ذلك فذكرتُ ذلك لمحمد بن المنكدر، وقلتُ: إِنَّمَا ظننتُ أنه قبر بعض أَهْلِهِ. فَقَالَ محمد: كلهم أهله وإخوانه، إِنَّمَا هو رجل يُحَرِّك قلبه بذكر الأموات، كلّما عرضت له قسوةٌ. قال: ثم جعل محمد بن المنكدر بعد يمرُّ بي فيأتي البقيع، فسلَّمت عليه ذات يوم، فَقَالَ: أما نفعتك موعظة صفوان؟ قال: فظننتُ أنه انتفع بما ألقيتُ إِلَيْهِ منها.

أي: أنت الآن رأيت صفوان جاء وتَأَثّر، وبَكَى، ويمر على القبور، ويتذكَّر الأموات، هل انتفعت مثله؟

كأنه يريد أن يقول له: إذا أنت تمر عليك هذه المواعظ ولا تنتفع، ما الفائدة وعلى أي حال قلبك؟!

يقول: (فظننت أنه انتفع بما ألقيتُ إِلَيْهِ منها).

وذكر أيضـًا أنَّ عجوزًا مُتَعبِّدة من عبد القيس كانت تُكثر إتيان القبور، فعُوتبت في ذلك. فقالت: إِنَّ القلب القاسي إذا جفا لم يليّنه إلاَّ رَسُومُ البِلَى، وإنِّي لآتي القبور وكأني أنظر إليهم وقد خرجوا من بين أطباقها، وكأني أنظر إِلَى تلك الوجوه المتعفِّرة، وإلى تلك الأجسام المتغيِّرة، وإلى تلك الأكفان الدَّنِسَة. فيا له منظر لم أَسُرَّ به قلوبهم، ما أنكل مرارة الأنفس وأشد تَلَفَة الأبدان.

هنا امرأة تزور القبور، ولا شكَّ أن زيارة المرأة للقبور فيها خلاف، والراجح: أنه لا يجوز للمرأة أن تزور القبور؛ لأنه ورد في الحديث الشريف: «أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ».

وفي لفظ: «زَائِرَات الْقُبُورِ».



وقال زياد النُّمَيْرِي: ما اشتقت إِلَى البكاء إلاَّ مَرَرْتُ عليه. قال له رجل: وكيف ذلك؟ قال: إذا أردتُ ذلك خرجت إِلَى المقابر فجلستُ إِلَى بعض تلك القبور، ثم فكَّرتُ فيما صاروا إِلَيْهِ من البِلَى، وذكرت ما نحن فيه من المُهْلَة. قال: فعند ذلك تختفي أطوَاري!

أي: تختفي تلك القسوة، وتختفي تلك الأشغال والحالات التي يَتَقَلَّب فيها في يومي وليلتي؛ حينما أذهب إلى القبور.

وأنت جَرِّب، اذهب إلى المقبرة زيارة، وانظر في القبور أو انظر في قبر منها، وتأمل، سيأتي يوم من الأيام سَتُزَار أنت، اليوم أنت تَزُوْر، وسيأتي يوم من الأيام سَتُزَار أنت.

اذهب إلى هذه المقبرة، وتَأَمَّل الحياة وما أنت مُنْشَغِل به، هل يخدم ما سَتُقْبِل عليه من تلك المقابر أو لا؟

نحن اليوم نرى القبور ونحمل الأموات؛ لكنَّنَا لا نَتَّعِظ، وكل ذلك بسبب ماذا؟

كل ذلك بسبب أننا نأتي ولا نَتفَكَّر، ولا نَتَأَمَّل في حالهم، وكأنَّهَا ليست حقيقة، وكأن الموت ليس حقيقة. وهذا لا شك أنه من كثرة الغفلة التي سيطرت على هذه القلوب.

وَأرجُــو أَن يَطُولَ العُمــــرُ حَتَّى   أَرى زَادَ الرَّحِيـــــلِ وقَد تأَتَّى

أيَــا غُصنَ الشَّبابِ تَميــلُ زَهوًا   كأَنَّكَ قَــــــد مَضَى زَمنٌ وشِبْتَ!

عَلِمتَ فَدَعْ سَبِيلَ الجَهلِ واحذَرْ   وَصحِّحْ قَــــد عَلِمتَ ومَا عَمِلْتَ

وَيَا مَـــن يَجمعُ الأموالَ قُلْ لِي   أَيَمنَعُكَ الـــــرَّدَى مَا قَد جَمَعتَ

وَيَا مَـــــن يَبتَغِي أَمرًا مُطَاعًا   يُسْمَعُ نَافِذًا مَـــن قَد أَمَرتَ

أَجَجْتَ إِلَــــى الوِلاَيَةِ لاَ تُبَالِي   أَجرْتَ عَلَـــى البرِيَّةِ أَم عدَلتَ

ألاَ تَدرِي بأَنَّكَ يَـــــومَ صَارَتْ   إِلَيكَ بِغَيـــــرِ سِكِّينٍ ذُبِحتَ

ولَيسَ يَقُـــــومُ فَرحةٌ قَد تولَّى   بِترحةِ يَـــومَ تَسمعُ قَد عُزِلتَ

وَلاَ تُمْهِل فَإِنَّ الوَقتَ يَسرِي   فإِنْ لَـــم تغتَنِمهُ فَقَد أَضَعتَ

تَـــــرَى الأَيَّامَ تُبلِي كُلَّ غُصنٍ   وَتَطوِي مِـــــن سُرُورِكَ مَا نَشَرْتَ

وَتَعلَـــــــمُ إِنَّمَا الدُّنيَا مَنامٌ   فَأحلَى مَا تَكُـــــونُ إِذَا انتبَهتَ

فَكَيفَ تصدُّ عَـــــن تَحصِيلِ بَاقٍ   وَبِالفَانِــــي وزُخرُفِهِ شُغِلتَ

هِــــيَ الدُّنيَا إِذَا سَرَّتكَ يَومًا   تَسُوْؤُكَ ضِعــــفَ مَا فِيهَا سُرِرتَ

تَغُـــرُّكَ كالسَّرابِ فأنتَ تَسرِي   إِليــــهِ ولَيسَ تَشعُرُ قد غُرِرتَ

وَتَشهدُ كَـــم أبادَتْ مِن حَبِيبٍ   كأَنَّكَ آمِـــنٌ مِمَّا شَهِدتَ

وَتَدْفِنُهُم وَتَـــرجِعُ ذَا سُرُورٍ   بِمَا قَـــــد نِلتَ مِن إِرثٍ وحَرْثَ

وتَنسَاهُمْ وأَنتَ غَـــدًا سَتفنَى   كَأَنَّكَ مَا خُلِـــــقتَ ولاَ وُجِدْتَ

تُحدِّثُ عَنهُـــــمُ وَتقُولُ كَانُوا   نَعـــــمْ كَانُوا كَمَا واللهِ كُنتَ

حَدِيثُكَ هـــــمُ وأَنتَ غدًا حَدِيثٌ   لِغَيرِهِـــــمُ فَأَحسِن مَا استطَعتَ

يَعُــــودُ المرءُ بَعدَ الموتِ ذِكرًا   فَكُن حَسَنَ الحَدِيثِ إِذَا ذُكِرتَ

سلِ الأَيَـــــامَ عَن عَمٍّ وخالٍ   وَمَالَكَ والسُّؤالُ؟! وقَـــد عَلِمتَ

أَلَستَ تَـــــرى دِيارَهُمُ خَلاَء   فَقَـــد أنكَرْتَ منهَا مَا عَرَفْتَ



هنا ذَكَر أبيات جميلة للغاية، تتَكَّلَم عن حال الإنسان في هذه الدنيا وانشغاله. وسَأَلَ ابن رجب -رحمة الله تعالى عليه- في هذه الأبيات مُسَاءَلَات كثيرة للنَّفْس جميلة للغاية؛ حريّ بنا أن نتفكّر بها.

ومنها: النظرُ في ديار الهالكين، والاعتبار بمنازل الغابرين.

ومنها: -أي: من مُزِيْلَات قسوة القلب- **النظرُ في ديار الهَالِكِين، والاعتبار بمنازل الغابرين.**

تَأَمَّل! لو أنَّكَ من أقوام سابقة قد غاصت في الجهل أو غاصت في الضَّلَال، وغاصت في الفِسْق، أو غاصت في البدعة، تَأَمَّل أهل البِدَع لو أنَّكَ وُلِدْتَ من أَبَوَيْنِ كافِرَين، وتعاملت مع هذه الدنيا وكأنّه ليس هناك آخرة، أليس من مِنَّة الله -عزَّ وجلَّ- عليك أن جعلك مسلم، وأَنَّك من أبوين مسلمين؟ إذًا لماذا لا تستفيد من هذه النعمة؟!

أو أنك نشأت على بدعة أو على ضلالة، أو في مجتمع مليء بالفسق والمجون، الله -عزَّ وجلَّ- اختصَّك بأشياء كثيرة، بعقيدة صحيحة، بِحُبًّ لمجالس الذكر ومجالس الخير، حينما تَتَأَمَّل من عجز عن مثل هذا، أو من كان بعيدًا عن العقيدة الصحيحة ونحو ذلك، أو حينما تَتَأَمَّل أخبار السابقين الهالكين من الأقوام السابقة، وما عذّبهم الله -عزَّ وجلَّ- به، تذكَّر قوم عاد، تذكَّر قوم صالح، تذكَّر الأقوام السابقة وما مَرَّت عليهم من العقوبات ونحوها.

لو أنت واحد من أولئك القوم، لربّما الإنسان ضَلَّ بسبب هذا المجتمع الذي يعيش فيه أو عاشت فيه تلك الأقوام السابقة.

فمن نعمة الله -جلَّ وعلا- عليك أن جعلك في مجتمع يحثّك على الخير، وسُبُل الخير فيه مُتَيَسِّرَة، وكثيرة للغاية.

روى ابن أبي الدُّنْيا في كتاب "التفكُّر والاعتبار" بإسناده: عن عُمر بن سليم الباهلي، عن أبي الوليد، أنَّه قال: كان ابن عمر إذا أراد أنْ يتعاهد قلبَه يأتي الْخَرِبَة فيقف عَلَى بابها، فيُنادي بصوت حزين، فيقول: أين أهلك؟ ثم يرجع إِلَى نفسه، فيقول: "كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ".

ورَوَى في كتاب "القبور" بإسناده، عن محمَّد بن قُدامة قال: كان الرَّبيعُ ابن خُثَيم إذا وَجَدَ من قلبه قسوةً يأتي منزل صديق له قد مات في الليل فيُنَادِي: يا فُلان ابن فلان، يا فُلان ابن فلان. ثم يقول: ليت شِعري، ما فَعَلْتَ وما فُعِلَ بِكَ؟ ثم يَبْكِي حتى تسيل دموعه، فَيُعْرَف ذاك فيه إِلَى مثلها.

(فَيُعْرَف ذاك فيه إِلَى مثلها) أي: إلى الغد.

أيها الإخوة! نحن بحاجة إلى أن نذهب إلى مُرَقِّقَات القلب، لا تظن أن تلك الْمُرَقِّقَات ستأتيك وأنت في مكانك، لابد أن تسعى إليها، لابد أن تذهب وتعتبر وتتأمّل في الأموات، وتتأمّل في القبور، وتتأمّل في المرضى حينما تزور المرضى في المستشفيات ونحوها، وكيف أن الله -عزَّ وجلَّ- امتن عليك بنعم كثيرة.

نحن دومًا لا نَذْكُر النِّعْمَة؛ ولكن إذا حَلَّت النِّقْمَة تذكّرنا النِّعْمَة التي حَلَّتْ بها النِّقْمَة. نحن بحاجة، وحاجة ماسَّة للغاية إلى وقفة مع النَّفْس، ومحاسبة للنَّفْس، وتأمُّل في الحال؛ لأنك إذا لم تعتبر فستمر عليك اللَّيَالِي كما مَرَّت على من سبق، وستخرج من هذه الدنيا.

وهل تخرج منها بندامة؟ أو أنك تخرج منها وقد ازددت من الخير؟ لا يكون ذلك أبدًا إلا حينما تَتَفَكَّر وتَتَأَمَّل في نفسك: ماذا لو جاءك الموت؟! ماذا لو اقترب أجلك؟ ماذا لو فقدت نعمة القدمين؛ هل ستأتي إلى الطاعات، وتقضي بها الحاجات ونحو ذلك؟ ما تستطيع.

ماذا لو فقدت نعمة العينين، هل سَتُقَلِّب عينيك في كتاب الله -جلَّ وعلا-، أو في نعمه، أو في آياته الكونية والشرعية ونحو ذلك؟ لا.

لكن لو حَلَّت النِّقْمَة -لا قَدَّر الله- على شخص، فإنه ماذا سيقول؟ يقول: يا ليت لي بصر.



لو قيل له ماذا ستفعل لو لك بصر؟ يقول: سأقرأ القرآن، وسأمشي إلى مواطن الخير، وأسعى، وأفعل، وأفعل، وأفعل. لكن أنت في نعمة الآن، هل أَدَّيْت شُكْرَهَا؟ هذا الذي نحتاجه اليوم.

ومنها: أكلُ الحَلَال.

روى أبو نُعيم وغيرهُ، من طريق عُمر بن صالح الطرسُوسي، قال: ذهبتُ أنا ويحيى الجلاء -وكان يقال إنّه من الأبدال- إِلَى أبي عبد الله أحمد بن حنبل فسألتُه، وكان إِلَى جنبه بُوران وزُهير الجمَّال، فقلت: رحمك الله يا أبا عبد الله، بم تلين القلوبُ؟ فنظر إِلَى أصحابه فغمزهم بعينه، ثم أطرق ثم رفع رأسه، فَقَالَ: يا بُنَيَّ بأكل الحلال. فمررتُ -هذا الرجل وهو عمر- كما أنا إِلَى أبي نَصْر بِشْر بن الحارث، فقلتُ له يا أبا نصر، بم تلين القلوب؟ فَقَالَ: أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ. قلت: فإني جئتُ من عند أبي عبد الله قال: هيه! أيُّ شيءٍ قال لك أبو عبد الله؟ قلت: قال: بأكل الحَلَال. فَقَالَ: جَاءَ بالأصل! جَاء بالأصل.

فمررتُ إِلَى عبد الوهاب الوَرَّاق، فقلتُ: يا أبا الحسن بم تلين القلوب؟ فَقَالَ: أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ. قلت: فإني جئتُ من عند أبي عبد الله. فاحْمَرَّت وَجْنَتَاه من الفَرَح!

فَقَالَ لي: أي شيءٍ قال أبو عبد الله؟ قلتُ: قال: بأكل الحَلَال.

فَقَالَ: جاءك بالجوهر، جاءك بالجوهر، الأصل كما قال، الأصل كما قال!.

قال بعضهم عنه: لقد حكيت ولكن فاتك الأنسب.

والحمدُ للهِ وحدهُ.

ختم بهذا، قال: (ومنها: أكلُ الحَلَال)، أي: من مزيلات قسوة القلب أكل الحَلَال.

(قال: هيه) أي: زدني ماذا قال لك؟ أي شي قال لك أبو عبد الله؟ قلت: قال: بأكل الحلال. فَقَالَ: جَاءَ بالأصل! جَاء بالأصل. أي: هو أجابك بالأصل، الأصل الذي تلين به القلوب.

(فاحمرت وجنتاه من الفرح) يفرحون؛ لأن الإمام أحمد عنده من العلم الشيء الكثير، وعنده من المعرفة في دين الله -جلَّ وعلا- الشيء الكثير.

(قال بعضهم عنه: لقد حكيت ولكن فاتك الأنسب) أي: تكَلَّمْت أنت بالسبب؛ لكن فاتك ما هو أنسب منه.

فالأصل ما هو؟ هو أكل الحلال.

كثيرًا ما نغفل عن هذا، وربما يتهاون الإنسان بالشيء اليسير من المال الحرام.

أقول: ربما دفعتك نفسك وحُبَّك للمال أن تتهاون بشيء يسير من المال أخذته بغير حق؛ لكن اعرف أن مَغَبَّة هذا الشيء، واعرف أن ضرر هذا الشيء عليك عظيم في الدنيا وفي الآخرة.

أما في الآخرة فستُسْأل عن هذا، وأما في الدنيا ربما وجدت من قسوة القلب ما يجعلك تَتَفَكَّر وَتَتَأَمَّل وتَتَمَنَّى أنه لم يدخل في مالك ريال واحد من الحرام.

يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ؛ أَمِنَ الْحَلَالِ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ».

يتهاون الإنسان كثيرًا في أكل الحلال، كانت زوجة تقول لزوجها من السَّلَف إذا أراد أن يخرج ليطلب الرزق، تقول له: اتقِ الله فينا، نصبر على الجوع ولا نصبر على أكل الحرام. يعني ولو ما تأتِ بشيء نأكله؛ المهم أن لا تأتي إلا بحلال.

ولقد زار الإمام أحمد، الشافعي، وأكل عنده العشاء، فأكل جميع ما في الصَّحْن، واستغربت ابنته، ابنة الشافعي، قالت: هذا الإمام أحمد أكل كل ما في الصَّحْن، يقول الشافعي: فسألته، فقال: أدركت لقمة حلالًا فأحببت أن آكل حلالًا؛ لأنه كان -رحمه الله- يَتَوَرَّع عن بعض الطعام من أجل أنه ربما يشوبه شيء من الحرام؛ لكنّه عرف الشافعي وعلمه وتقواه، فأكل ما عنده.

أقول: التماس الحلال مهم للغاية.

ولربما وجدت قسوة في قلبك، وحرمانًا لبركة رزقك؛ بسبب ماذا؟

بسبب أنك تهاونت بشيء يسير من الحرام، دومًا وأبدًا إذا شككت لا سيما في المال، إذا شككت به التمس الحلال، وأبعد عنك كل شك.



وتذكرون ما مَرَّ معنا بأن من أسباب قسوة القلب: أكل الحرام، ومنه حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: «وَذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُه حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ».

يمد يديه، ويقول: يا رب يا رب يدعو الله -عزَّ وجلَّ-؛ لكن ما يستجاب له. لماذا؟

لأن مطعمه حرام؛ ولأنه أكل الحرام، وكلما تَعَوَّد الإنسان على التَّوَرُّع في مثل هذا الباب وأَكَلَ الحَلَال، كلما وجد بَرَكَة في رِزْقِه.

اليوم من الناس من يستلم مكافأة ومُرَتَّب، ربما كثير للغاية، ويعد نفسه من الميسورين جدًا أو مع الأغنياء، ومع ذلك يقول: والله يذهب المال لا أدري أين ذهب. لا تقول لا أدري أين ذهب، كل شيء تشتريه هو محسوس؛ لكن بركة المال هل تبقى أو لا؟ هذه الأشياء ذكرها ابن رجب -رحمة الله تعالى عليه- في مُزِيْلَات قسوة القلب.

وهناك أمور أخرى لم يذكرها: ومنها محاسبة النفس، ومَرَّت معنا ضِمْنًا؛ زيارة العلماء، وزيارة مجالس العلم، ومجالس الذِّكْر، فإن هذه من مُرَقِّقَات القلب، وهي من مجالس الآخرة.

ومنها: الإكثار من الدُّعَاء وسؤال الله -جلَّ وعلا- الثَّبَات.

منها: النَّظَر في آيات الله الكونية، وتَدَبُّر آيات الله الشَّرْعِيَّة.

ومنها أيضًا: تَعَلُّم الْعِلْم.

كل هذا من أسباب مُزِيْلَات قسوة القلب، وممّا يُرَقِّق القلب.

وبهذا ننتهي من هذه الرسالة تعليقًا يسيرًا.

وأسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن ينفعنا بما عَلَّمَنا، وأن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا دومًا وأبدًا ممن يَتَتَبَّعُ مجالس الذِّكْر.

وأن يجعلنا ممن يصبر عليها؛ لأن هذه المجالس مجالس الذكر ومجالس العلم لربما استعجلت فيها، ولربما كانت حسرتك يوم القيامة أنك استعجلت عنها، ولم تعطيها حقّها.



أقول: لربما جاءك يوم القيامة ما تَتَنَدَّم وتَتَحَسَّر أن تحضر درسًا ولو لثلاث دقائق أو لخمس دقائق، يكفي في كل مجلس ذِكْر ومجلس علم أنه يُقَال «قُوْمُوا مَغْفُورٌ لَكُمْ، قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتِكُمْ حَسَنَاتٍ».

فلا تستكثر أبدًا الجلوس في مجالس الذِّكْر، ولا تتكاسل عن هذا، فإن النفس تدفعك إلى أن تترك مجالس الذِّكْر ومجالس العلم.

أقول لم يصفو من مجالسنا اليوم في أن تكون مجالس للآخرة إلا مجالس العلم ومجالس الذِّكْر، فالله الله بالاستكثار منها، فإنها من أعظم وسائل الثَّبَات.

أسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يُثَبِّتَنَا دومًا وأبدًا، وأن يجعلنا هُدَاةً مُهْتَدِين، وأن يجعلنا ممن يُفْتَح له في باب الطاعة، وممن يُيَسَّر الخير على يديه إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن ينفعنا جميعًا، وأن يبارك لنا فيما تَعَلَّمْنا إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصَّلَى الله وسَلَّم وبَارَك على نَبِيِّنَا مُحَمَّد.

